

عود إلى سولجنتسين

« لكل شعب ، اذن ، آلهته ، واصناف
آلهته ، وابطاله .. »
(الماركيز د صاد :
(تأملات في الفن الروائي)

لرسالتي كلها اليكم ، فقد كتبها وأنا مدرك تماماً انكم الوافعيون
الذين ما بعدهم واقعية .. » (1)

لدينا ، اذن ، ذلك الوضع الذي بات تقليدياً بالنسبة لدور الفكر
والفن في الثقافات المتقدمة (الم يكن وضع فولتير وكثيرين قبله
وبعده ؟) ، وهو وضع تحدد بصورة أكثر عمقا واشد اتضاحاً في هذا
القرن العشرين الرهيب : وضع الصدام مواجهة بين قوتين : الفنان
والنظام . والفنان قد لا تكون لديه اسلحة غير قلمه او فرشانه ،
وبالتأكيد ليست لديه قوات امن غير صفحاته او لوحاته ، لكنه يمكن
الا يكون شاعر مديح او شاعر رثاء ، يمكن ان يكون قوة مدمرة
للخصم هو ايضا .

وفي ساحة ذلك الصراع تستमित كل قوة من القوتين في فرض
ارادتها ، والمحافظة على بقائها : (« أنا اعلم جيداً انكم لن تدعوا
السلطة تتسرب من بين اصابعكم ابداً » (2)) ، وهي تفعل ذلك اما
باخضاع القوة المناوئة وتطويعها ، واما بالقضاء عليها والتخلص منها .
هذا ما فعله النظام السوفييتي ، او ظل يحاول فعله ، طيلة عهده
بأكمله : حاول ان يخضع سولجنتسين ويطوعه ، بمحاولة استقطابه
واستيعابه (في ظل خروشتشوف) تارة ، وبالتشهير والارهاب (بعد
سقوط خروشتشوف) تارة اخرى . وهو ، ايضا ، عين ما فعله
سولجنتسين : حاول ان يخضع النظام السوفييتي لفكره ورؤيته ، او
يقضي عليه . ويخطيء من يتصور ان ذلك صراع قد بلغ منتهاه بطرد
سولجنتسين وتشريده في بلدان اوروبا الغربية ، فهو لم يكذب ابداً .
ومعترفاً ان بدا هذا الكلام ، وهو يكتب بالبرية ، غريباً بعيد المآخذ ،
لكنه يكتب عن اناس يعيشون ويتعاملون ، وعن اشياء تجري ، في
عالم اخر . فلنتصور ان كاتباً يمكنه الا يحول قلمه الى بوق او منشقة ،
او يحول نفسه الى مطية ، في سبيل ان يخوض مثل هذا الصراع المهلك .
وان استعصى علينا ذلك التصور ، بحكم الاعتقاد ، فلنلق بسمنا
الى الكاتب :

« ومن غير الكاتب يمكن ان يوجه اللوم والمؤاخذة الى الزعماء
الناقصين الذين لا يصلحون لعلمهم ، بل والى المجتمع كله كما يتصف

(1) الكسندر سولجنتسين : « رسالة الى زعماء الاتحاد

السوفييتي » ، ص ٥ .

(2) « رسالة .. » ، ص ٥ .

اخطاء من الجانبين :

ولد الكسندر ايزايفيتش سولجنتسين في شهر ديسمبر من عام
١٩١٨ ، في بلدة ريفية صغيرة باقوفاز . وقد ولد يتيماً ، لان اياه
مات في حادث قبل مولده بستة اشهر ، وولد فقيراً ، لان ذلك الاب
كان من فقراء الطبقة المتوسطة الدنيا ، وقد حاول في صدر شبابه ان
يدرس فقه اللغة بجامعة موسكو ، ليصبح مهنياً ، ويطفو الى السطح
قليلاً ، لكن ظروفه المادية المعاكسة لم تمكنه من ذلك .

قامت على تربية الصبي اليكسبي امه ، مستعينة براتب ضئيل
من عملها ككاتبة اختزال وطابعة على الآلة . ولم تكن حياة الروس
ميسرة في تلك السنوات الشجاعه العجفاء التي اعقبت قيام الثورة ،
وذاق خلالها عامة الناس - الذين يعملون دائماً عبء التجربة - طعم
المجاعة .

وقد ولد سولجنتسين موهوباً . فرغم ما ذاقه وامه من مرارة
العيش ، أظهر نبوغاً مبكراً في دراسته ، وتفوقاً على اقرانه ،
وحصل - بعد تخرجه من جامعة روستوف بدرجة في الرياضيات -
على منحة دراسية حملت - دون سائر خلق الله - اسم ستالين ،
اعطيت له ليواصل دراساته العليا في الفيزياء والرياضيات . وكان
ذلك بدء سلسلة اخطاء من الجانبين من المؤكد ان العواقب التي
ترتبت عليهما لم تصل الى ذروتها بعد .

وقبل ان نذهب الى ابعد من هذا ، نتوقف لحظة ، ونسال
انفسنا : ما هي المشكلة فيما يخص هذا الصدام ، الذي تجاوزت
اصداؤه في اركان العالم الاربعة ، بين سولجنتسين والنظام السوفييتي؟

المشكلة - فيما نراه - مشكلة صدام بين رؤية مثالية ، من
جانب الكاتب ، تصدر عن تصور لما ينبغي ان يكون ، ومسار واقعي ،
يلتزمه النظام ، يقوم على ايمان بان الغاية (عالم الاجيال القادمة
الذي سيتحقق فيه الفردوس الارضي ، بعد فترة عبور بالمظهر ، طويلة
واليمية نعم لكنها موفوتة تبعاً لما تقوله النصوص المعتمدة) ان
تلك الغاية تبرر كل الوسائل ، وتتطلب الحفاظ على ما هو كائن .

وسولجنتسين واع تماماً بصفة الواقعية هذه في خصومه .
فهو يقول لهم : « .. وأنا (اذ اقول لكم كل هذا) لا انسى لحظة
انكم واقعيون تماماً ، بل ان ادراكك تلك الحقيقة كان المنطلق الاساسي

به المجتمع من جبن وخنوع واذلال للنفس وضعف مستكين ؟ ورب سائل يسألنا : وما الذي يستطيعه الادب في وجه الشراسة الضاربة التي لا ترحم للصف السافر ؟ لكننا لا يجب ان ننسى ان العنف لا يمكن ان يتواجد بذاته ، منفردا ، ولا يستطيع البقاء منعزلا ، فهو لاصق ، بلا فكاك او مهرب ، بالاكذوبة » (٣)

(والمقل الذي يوجهه اليه الكاتب قلمه هو تلك الاكذوبة)

ثم لنلق بسمعنا الى النظام نفسه :

« هاجم الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف يوم امس الكتاب والمثقفين المنتقدين الذين ينتقدون النظام السوفيتي .

وكان الزعيم السوفيتي يتحدث في مؤتمر للشباب الشيوعي عقد بموسكو ، ورغم انه لم يذكر الكاتب الروسي سولجنستين الذي طرد في نهر فيراير الماضي ، تحديدا ، بالاسم ، فقد كان من الواضح ان كل ما قاله انصب اساسا ، وبطريقة مباشرة ، على ذلك الكاتب . وقد استخدم الرفيق بريجنيف لفظة « المرند » التي اطلقت على سولجنستين ابان الحملة الصحفية الطويلة التي سبقت طرده . . وقال الزعيم السوفيتي ان اناسا من هذا النوع حاولوا من قبل ان ينحرفوا بالثقافة السوفيتية عن مسارها المعتمد رسميا لكنهم باءوا دائما بالفشل . وفشلت المحاولات العديدة التي تعرض لها الادب السوفيتي وسائر الفنون وجهد اصحابها في تضليل تلك الفنون وابعادها عن الحياة واجتاحتها من المثل العليا للمجتمع السوفيتي . وقال مسيو- بريجنيف ان كل هؤلاء الرتدين والضالين من ابناء الوطن السوفيتي لا يفعلون - بمحاولاتهم هذه المقضي عليها بالفشل - الا تريد ما يقوله اعداء الاتحاد السوفيتي الطبيون والايديولوجيون ، لكن التربة السوفيتية غير صالحة لتمو مثل هذه الحشائش الضارة » (٤).

في مثل هذا الصراع (واهمية سولجنستين مائلة - اساسا - في انه ، لظروف تاريخية وثقافية بعينها ، جسده حيا على الطبيعة ، ربما كما لم يجسده كاتب من قبل) تكون للاخطاء التي ترتكبها القوان المتصارعتان عواقب خطيرة وبعيدة المدى بالنسبة لكتيها والساحة التي يدور فيها الصراع .

وكل ما نرجوه ، قبل ان نأخذ في تتبع تلك الاخطاء ، الا يتصور الفارئ اننا نسخر او نتكلم ، ونؤكد له اننا نعني ، بمنتهى الجدية ، كل كلمة ، في محاولتنا النظر بواقعية الى ذلك الصراع والقوتين المشتبكتين فيه ، بشيء من البرود يبدو لنا انه ما من سبيل غيره الى مثل ذلك النظر ، حتى لا نخطئ الفهم .

ونحن قد نختلف مع سولجنستين (وقد اختلفنا) ، ونذهب في خلافنا معه الى اخر المدى ، لكننا لا نختلف بحال حول اهميته ، وجديته ما يقول ، ومدى الصديق الذي توخاه في كل ما قال ، والاهم من ذلك ، حول حقه (بل واجبه ؟) في ان يعلن تلك الافكار ويجهر بها ، وربما يموت دفاعا عنها ، ما دام مؤمنا بها .

هذه مشكلة الكاتب . اي كاتب . وقد يكون مخطئا في بعض او كل ما يؤمن به ويقول ، لكن كل ما عليه هو ان يجاهر به ، بصديق ، بغير تحريف ، او اخفاء ، او اضافة ، او سوء نية . واذا ذلك يكشف نفسه تماما . يعترف . يقف عاريا معرضا للانظار وللسهام والحرب من جيشها آت ، بغير استسلام ، بغير استشهاد ، وبغير تسلق لاي صليب مهما صغر ، مقابلا بضروة ، حتى النهاية . ومن حق الكل ان يناقشوه ويعارضوه ويكشفوا جنونه او اخطائه ، لكن ليس من حق احد ان يضع كمامة على فمه . وقد يقنع الكاتب العصر ، وبعده كل العصور ، بانه راي وجها من اوجه الحقيقة ، وتكلم بالصديق ، وقد يفحم العصر

(٣) سولجنستين ، « خطبة نوبل » ، ص ٢٦ .

(٤) صحيفة الديلي نلجراف ، وسائر الصحف الانجليزية ، اراسليها بموسكو .

الكاتب ، ويلقمه حجرا ، فيسكت ، ويموت ، ويندثر ذكره . لكن ذلك شيء تفعله العصور ولا تقدر عليه مكاتب الحكومة وقوات الشرطة .

اما مشكلة النظام ، اي نظام ، فهي ان النظم مهما تالته وادعت الفداسة والعصمة من الخطأ ستجد دائما في طريقها تلك الضمانات والعمول المستنيرة المعارضة التي ترى ابعس وترى رؤية مختلفة ، وتكتشف اخطاء ، وتكشفها . وليس امام النظام آتذ الا ان يزيح تلك الضمانات والعمول من طريقه ، او - وذلك من وجهة نظر الامن والنظام افضل - يمنع تواجدها اصلا ، او يسلم بانه لا مهرب من وجودها ، ولا مهرب من التعامل معها . والنظم ، بعد كل شيء ، تعبير موضوعي عن ارادات ورؤى فردية وعمول فردية مفروض انها تفكر هي الاخرى وبوسعها ان تتعامل مع عقول اخرى حتى وان كانت تلك العمول تعبر عن ارادات معارضة ورؤى مغايرة .

لكن هذا كله كلام مثالي ، وليس معهولا به . فمن واقع ممارسة كل النظم ، لا النظام السوفيتي وحده لكي تكون عادلين ، لا يوجد في عالمنا نظام يقبل حكومة سولجنستين المناهضة ، اي يقبل بذلك التسليم بوجود ارادات ورؤى اخرى ويرضى بالتعامل معها بالعقل والمنطق لا بالسوط او بالمسندس . والتعامي الكلي الذي تلجأ اليه الصحافسة الغربية في تناولها لمشكلة سولجنستين وغيره من المنتقدين السوفيت لما يفيظ حقا . فتلك الصحافة ، حتى الليبرالية واليسارية منها تعرض الفقيصة كما لو كانت فيلما من افلام رعاة البقر تجري احدائه بين الاخيار (الكتاب المشفقين) والاشرار (النظام السوفيتي) ، وتقف - بطبيعة الحال - في جانب الاخيار وتهل لهم ، وهي تعلم تماما انها لا تصفق لما يفعلونه بل لما يمثلونه بالنسبة للمصالح التي تعبر عنها ، وانها تستغل صراعهم مع النظام السوفيتي في التشهير بذلك النظام ، متناسية ان كل ما هنالك من اوجه تباين او خلاف واختلاف بين المؤسسة السوفيتية ، والمؤسسة الاميركية ، او الفرنسية ، او البريطانية ، فيما يخص مشكلة الكاتب الذي يعتبر نفسه حكومة مناهضة هذه ، ليست الا اختلافا في الدرجة ، وبالذات في درجة التظاهر بالصوق بمثل الانفتاح والتحضر والحريسة والديموقراطية . ولا ننسى اننا نعيش في عصر من اعسى العصور كلبية ، عصر ارتكبت افظع جرائمه وما زالت وراء ستار « صوت الشعب من صوت الله » ، وباسم « الشعب مصدر السلطات » . ولقد فطن سولجنستين الى كل هذا في موقف الصحافة الغربية منه بعد ايام قليلة من اقامته في الغرب ، فثار ثورة عاتية ، واتهم تلك الصحافة بانها اسوأ من البوليس السري السوفيتي ، فردت عليه بعض الصحف مذكرة اياه بانه لولا الضجة التي اثارها حوله لما كان قد نجح من براثن ذلك البوليس السري الذي يشبهها به .

فلنكن واقعيين اذن ، وننظر الى المشكلة من وجهة نظر الامن والنظام . ولسوف يتضح لنا ، متى فعلنا ذلك ، جسامة الخطأ الذي تنردى فيه النظم الحاكمة اذ تيسح للمنفوقين من محكوميتها فرصة الاستزادة من العلم . فلو كان النظام السباليقي قد تخلص من سولجنستين مبكرا ، بدلا من ان يمنحه منحة ليواصل تعليمه ، لكان قد اراح واستراح . ومن يدري . قد يكون في تدبير هذه الاخطاء عبرة للانظمة اليقظة فتتبع على ضوئها سياسة الوفاية خير من العلاج . والمسألة ليست صعبة . فهناك - في متناول اليد - كشوف العلم وتطبيقاته ، وهناك الاف من الحكوميين المطيعين الخبراء والمتخصصين الذين يسعدهم ان يستخدموا تلك الكشوف والتطبيقات في خدمة القانسون والامن والنظام . وقد اجريت مؤخرا دراسة علمية على اعداد كبيرة من الناس من مختلف الفئات فتبين ان الطاعة وتنفيذ ما تطلبه السلطة من المحركات الاساسية لسلوكهم ، وان السواد الاعظم منهم لا يتردد في ارتكاب اعمال القتل او التعذيب متى كان ذلك في خدمة

السلطة (٤) . فما ضر ان بوجه كل ذلك لاستخدام ادوات كاداة الاختبارات النفسية ، واختبارات الذكاء ، والميول ، والاستعدادات ، في الكشف مبكرا عن « جانحي المستقبل » من كتاب وعلماء وفلاسفة ومفكرين وفنانين ، والنخلص منهم ، او - بعبارة معاصرة - تصنيفهم ، قبل ان يستفحل شرهم ؟ لو كان النظام الساليني قد فعل ذلك ، هل كانت تصيح لدينا مشكلة مزعجة عالية الصوت اسمها سولجنسكين ، واخرى اسمها زخاروف ، وثالثة ، ورابعة ، وخامسة ؟ والمشكلة ان اولئك الناس لا يسكتون ، وتصعب عادة تصنيفهم ، بعد ان تعرف اسماؤهم ، في هدوء (وان كانوا يتهمون - حيثما تسنى ذلك - بانجنون ، وانقصام الشخصية ، ويتم ايداعهم في « التبريد العميق » بمصحات الامراض العقلية ، او يخفون ، بغير ضجيج ، كما حدث قبلا لسولجنسكين ، في معسكرات السخرة والمعقلات) وذلك بدلا من ان تضطر الانظمة الى الدخول معهم في صراعات مكشوفة . وبهذه الطريقة (ترك هؤلاء الناس ليصبحوا كتابا ثم مطاردتهم) كم في عالم اليوم من كتاب مشردس خارج اوطانهم ؟ افلا يكون الاسلام والاجدى ان يجتوا ، بحل جذري ، ولا باول ، مبكرا ، قبل ان يصيحوا صداعا مقيها ، او خطرا على الامن والنظام ، او مصدرا لبلبلية الافكار واشاعة الفرقة بين الصوف ؟

اخفا النظام الساليني اذن ، وبدلا من النخلص من سولجنسكين ، اعطاه منحة ليواصل تعليمه . ولننظر ما حدث . يقول الكاتب : « كنت قد اكتشفت ، اثناء دراستي بجامعة روستوف ، ان لدي استعدادا غير عادي للتفوق في الرياضيات . غير اني - بالرغم مما اكتشفته من سهولة تلك الدراسة بالنسبة الي - لم اجد في نفسي الرغبة في ان اترغ لها . ومع ذلك ، فقد لعبت الرياضيات دورا خيرا في حياتي وانقذتني من الموت مرتين على الاقل . فمما لا شك فيه اني لم اكن لاتمكن من البقاء على قيد الحياة طيلة السنوات التي قضيتها في المعتقلات لو لم اكن ، بوصفي متخصصا في الرياضيات ، قد نقلت الى مكتب ما ، تابع لمعسكرات السخرة ، قضية تحت نفه اربع سنوات ، ثم بعد ذلك ، اثناء سني المنفى ، سئح لي ان اقوم بتدريس الفيزياء والرياضيات (في مدرسة ابتدائية بجمهورية كازاخستان الاسوية) ، مما جعل حياتي محتملة بعض الشيء ، واناح لي ان اكتب » . (٥)

وهكذا يترتب خطأ على خطأ . المنحة الدراسية ، اولا ، ثم ، بفضل ما تعلمه في ظل تلك المنحة ، ينقل الى مكتب تابع لمعسكرات السخرة ، فينجو .

وليت ذلك اسوا ما في الامر . فقد اغتنم سولجنسكين فرصة تلك المنحة الدراسية ، وانتسب الى معهد موسكو للفلسفة ، والتاريخ ، والاداب ، واتم دراسته فيه بالمراسلة ، وتخرج منه في اواخر عام ١٩٤١ . ولحسن حظه ، وسوء حظ النظام ، كانت دراسته الادبية هذه مسألة متوارية في الظل ، لم تسترغ انتباه احد ، والا لكانت الامور ساءت بالنسبة اليه كثيرا . ولهذا يقول ان دراسة الرياضيات كانت نعمة مزدوجة ، فبجانب ما هيانه له من معاملة مميزة في معسكرات السخرة ، مكنته من الابقاء على الجانب الادبي من حياته في الخفاء : « لانسي لو كنت قد انتظمت في دراسة ادبية لكان من غير المحتمل ان اخرج من تلك المحن (المعتقل والمنفى) حيا ، ولكنك ، منذ البداية ،

(★) Stanley Milgram : « Obedience to authority . An Experimental View » - Tavistock .

(٥) سولجنسكين : نبذة عن سيرته الذاتية - مؤسسة نوبل ، ١٩٧١ ، سؤدد ردت ضمن المرجع السابق الاشارة اليه : سولجنسكين ، سجل وناقني ، لندن ، ١٩٧٢ ، ص ٢٥ .

قد تعرضت لاضطهاد اشد وانكي » (٦) فهو واع تماما بتلك المهالك المتربصة باولئك الذين « يرون ما يرون انه حق ، ويكتبون بالصدق » ، كما وصفهم فنسطين بوتوفسكي .

زوج سولجنسكين من زميله له في الدراسة ، واشتغل بالتعليم ، فعمل مدرسا للرياضيات باحدى المدارس الثانوية بروتوف . ثم - وقد رتب شؤون حياته - بدأ ينصرف للكتابة . ومنذ طفولته كان ذلك توفه : ان يصيح كتابا . « حنى وانا طفل ، بغير دفع من احد ، كنت اريد ان اصبح كتابا . وبالفعل ، اخرج فلمي كمية لا يستهان بها من كتابات مرحلة ما قبل النضج المألوفة . وفي الثلاثينات حاولت ان اجد من ينشر لي بعض ما كنت اكتب ، فلم اجد احدا يقبل مخطوطاتي » . (٧)

وفي الاربعينات ايضا رفضت كتاباته . ويبدو ان روح التمرد والمناوأة والرغبة في تحطيم النمط السائد كانت كلها ناطقة في كتاباته منذ ذلك الوقت ، لان بيروفراطي الادب فسطين فيدين الذي رفض نشر اي شيء له في الاربعينات كان هو الذي رفض نشر روايته العظيمة « عنبر السرطان » في السبعينات . فالجدارة الادبية لم تكن المحك في رفض كتاباته الاولى ، يشهد بذلك رفض اعماله في سني النضج ، وهي اعمال لا خلاف على جدارتها .

بعد زواجه بقليل ، دخلت روسيا الحرب ، بعد ان رفض هنر معاهدة عدم الاعتداء التي كان ستالين قد عقدها معه ، واجاحت جغاله النازية حدود الاتحاد السوفيتي . وتقدم سولجنسكين ليخدم بلاده . وفي بداية الحرب ، كما يخبرنا هو ، « عين سائقا لعربة تجرها الخيول » . وظل يقوم بذلك العمل طيلة شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ ، غير انه نقل بعد ذلك « بسبب معارضة الرياضية » الى حيث انظم في دراسة بمدرسة المدفعية اتها بنجاح في نوفمبر من عام ١٩٤٢ ، فميين قائدا لوحدة مدفعية ، وترسم بذلك خطى ابيه الذي خدم - متظوما - كضابط مدفعية في الحرب العالمية الاولى . ويبدو من سجل خدمته انه كان جنديا ممتازا . فقد منح وسام الوطن من الطبقة الثانية ، ووسام النجم الاحمر الذي لا يمنح الا لمن يقومون باعمال عسكرية ممتازة ، ثم رقي الى رتبة نقيب . وتبعما لما جاء في تقرير اللجنة التي شكلت - بعد موت ستالين - لرد اعتباره ، انصح انه اشترك في القتال ، طوال سني الحرب ، على جبهات متعددة ، من ام ١٩٤٢ ، حتى القاء القبض عليه في عام ١٩٤٥ ، « وقال بشجاعة ، دفاعا عن ارض الوطن ، واستنفر حمية وولاء كل من خدم تحت امرته ، وفي اكثر من مناسبة فام باعمال بطولية ، كما ان وحدته كانت من خيرة الوحدات انضباط وكفاءة قتالية » . (٨)

غير ان ذلك كله لم يجده شيئا . فقد القي القبض عليه ، وحوكم غيابيا ، لا يدري احد لم ، وهو مقبوض عليه ، ووجد مدانا بجرائم رهيبة ، فتقرر ان يلقى به في فياهب معسكرات العمل لمدة ثماني سنوات طوال . ويقول الكاتب ان ذلك الحكم - بمقاييس ذلك العهد - كان رحيفا .

فما هي الجريمة التي ارتكبها سولجنسكين ؟ انتقد ستالين . ولم ينتقده علنا ، بل خفية ، في مكاتبات شخصية كان يتبادلها مع صديق من اصدقاء الدراسة ، ودون ذكر اسمه .

وكان ذلك اول خطأ ارتكبه سولجنسكين . لانه كان يجب ان يكون اعقل من ذلك . وبالحقيقة ، ما جدوى مثل تلك الافعال المجانية؟ ما الذي يمكن ان يحققه انتقاد حاكم كهذا ، خفية ، في حديث

- (٦) نفس المرجع ، نفس الصفحة .
(٧) المرجع السابق ، ص ٢٤ .
(٨) المرجع نفسه ، ص ٢٢ - ٢٣ .

خاص ، أو يوميات ، أو رسالة ؟ وقد تمثل خطأ سولجنتسين الاول هذا في انه لم يظن الى حقيقة الطرف الاخر مبكرا ، ولم يظن نتيجة لذلك - الى قواعد اللعبة .

ونتيجة لذلك ، فانه تورط بجهالة ، وارتكب تلك الخطيئة المميتة : خطيئة العيب في الذات الالهية ، ذات الزعيم القائد والراس الكبير ، ذلك مرض انساني قديم لا حدود لقبائه لا ندري كيف ظل الناس مبتليين به ، ومتى ؟ في القرن العشرين . نعم ، ان عامة البشر كانوا دائما في حاجة الى وثن ما ، حيوان خرافي او هولة ما ، يعبدونها ، ويشعرون بالرعب منها ، وتشبع فيهم حاجة مريضة الى مثل تلك العبادة وذلك الرعب ، ويتعصبون لها ، بل ويموتون من اجلها ، ويدعونها تمحظهم وتقتلهم . لكن غيبات العصر الوسيط وسحريات الديانات البدائية شيء ، والوهات القرن العشرين الأرضية شيء اخر . وان يظل الانسان يكرر في مهزليات نظمه السياسية ، نظاما بعد نظام ، دراما الخليفة الاولى كما جسدها في اساطيره ، وعصيان الخليفة للخالق ، والطرد من الفردوس ، لما يحار فيه العقل . نعم ان الزعيم القائد والراس الكبير يقتصب - في مهزليات النظم السياسية المعاصرة - صفة الاله ، بطرق لولبية وثيمة يجعلها ممكنة شبق البشر الى من يعذبهم ويمحظهم ، ويسبغ على رعاياه صفة الخليفة التي من صنع يديه ، في ظل انقلاب كلي تقوم فيه البولة بدور كهنوت العصر الوسيط ، فتمتلك لحساب الاله الزعيم القائد المتربع على قمته (سواء كان فردا فريدا ، او نالونا أو تاسوعا) ارواح الرعايا وعقولهم وايدانهم ، وحق احيائهم واماتهم ، نعم ذلك يحدث كل يوم ، حتى لينبو التمتع له من قبيل العتب ، بينما العتب ذاته ان يظل ذلك يتكرر ويتواصل ويترسخ .

يقول سولجنتسين : « الذي القبض علي استنادا الى ما وجدته الرقابة في مكاتبات كنت ابادلها خلال عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ مع صديق من اصدقاء الدراسة ، من عبارات تفتقر الى الاحترام الواجب لشخص ستالين ، رغم اننا لم نذكره بالاسم ، بل اشرنا اليه بالفاظغامضة . وكذليل اضافي على التهمة ، استخدمته السلطات مسودات قصص وافكار كنت قد كتبتها ووجدت في الحقيقة التي كنت احمّل فيها خرافتي . غير ان ذلك لم يكن كافيا ، فيما يبدو ، لاقامة الدعوى ضدي ومواجهتي بها ، ولذا فاني حوكت و صدر الحكم ضدي غيابيا في يوليو من عام ١٩٤٥ » (٩) . وبعد ذلك قضى ثماني سنوات في جنوب « مسكرات الاصلاح » بسيبيريا ، وثلاث سنوات منفيا في جنوب جمهورية كازاخستان الاسيوية السوفيتية ، تبين قرب نهايتها انه كان مصابا بسرطان في المعدة ظل معه ، بغير شك - طوال مدة اعتقاله في مسكرات العمل بسيبيريا ، وقد يكون اصيب به هناك ، ولم يعالج منه بعد عملية جراحية غير ناجحة اجريت له في كازاخستان ، فترك ليصل الى مرحلة خطيرة . يقول سولجنتسين : « وفي اواخر عام ١٩٥٣ كنت قد اصبحت على شفا الموت ، فلم اعد استطيع ان اكل او انام ، فوق ما كنت اعانيه من تأثير السموم التي كان يفرزها ذلك الورم الخبيث . وفي النهاية سمحوا بارسالي الى طشقند حيث عولجت وشفيت ، عام ١٩٥٤ » (١٠) والذي يقلب على الظن انه لولا موت ستالين لما كان الكاتب قد عولج في طشقند او في غيرها .

وماذا عن الكتابة اثناء سني المعتقل والمنفى ؟ يقول الكاتب : « كنت طيلة سني المنفى اقوم بتدريس الرياضة والفيزياء في مدرسة ابتدائية . وطوال تلك السنوات الشاقة الشقية التي قضيتها في وحدة مطبقة ، كنت اكتب النثر سرا (ففي المعتقل لم اكن مستطيعا الا ان اقرض بعض الشعر ولا اسجله بالكتابة بل اخترته في الذاكرة) . وقد توصلت

الى الاحتفاظ بكل ما كتبت ، واخذته معي ، فيما بعد ، عندما عدت الى الجزء الاوروبي من بلادي ، حيث واصلت تظاهري بالتفريغ تماما للتدريس ، مكرسا نفسي للكتابة في الخفاء . وطوال تلك السنين ، حتى سنة ١٩٦١ ، لم اكن قد ايقنت فحسب من اني لن ارى كلمة مما كتبت مطبوعة في حياتي ، بل كنت لا اجرؤ على اطلاع احد من معارفي الاقربين على شيء مما كتبت خشية ان يؤدي ذلك الى ذبوع الامر . وكان اقسى ما في تلك المحنة اني لم اكن مستطيعا ، بتلك الطريقة ، ان اقف على رأي احد من القادرين على الحكم الادبي فيما كنت اكتب » (١١) .

غير ان الكاتب كان يقيم حساباته وهو غير دار باتجاه الريح فسي دهاليز السلطة ، غير مردك ان بلاده كانت مقبلة على مرحلة مما وصفه الكاتب الانجليزي جورج ارنول ، قبل ذلك بربع قرن ، في نبوءة ١٩٨٤ . فقد عساد سولجنتسين من سنوات المعتقل والمنفى والاتحاد السوفيتي على اعتاب انقلاب مندا الذي كان يتصوره . واثر عودته بقليل ، التي خرشتشوف خطبته السرية التي اعلن فيها بدء الهجوم على ستالين . وكما يحدث في رواية ارنول ، اعيدت كتابة التاريخ من جديد ، اغدم التاريخ الذي كان قد كتب قبلا ، ووضع مكانه تاريخ جديد . فانقلب كل شيء رأسا على عقب ، واله الامس ، الاب العظيم ، الراس الكبير ، مسخت صورته ، او كشفت افئنته ، فاسفر لمبيده عن وجه شيطان خيس رجم . وذلك ، هو الاخر ، امر يتكرر كل يوم . ولقد تبين وقتها ، فجأة ، بلا سابق انذار ، ان ستالين كان طاغية ، وظالما ، ووحشا ، ومجنونا ، وجبارا ، واخرج من قبره ، فالقبي خارج الاسوار ودخلت مزرعته ، الاتحاد السوفيتي ، عهدا جديدا زاهرا من الاصلاح ، والحرية ، وسيادة القانون ، والانفتاح ، والخير العميم .

والذي يجعل عملية تفسير ديكورات النظم هذه ممكنة ومجزية لاصحابها ، المرة تلو المرة ، في كل زمان ومكان ، ان الناس ، تحت تاثير كليسة العصر التي تشكلهم ، وتحورهم ، وتصوغ تفكيرهم ، عودوا عقولهم (ان كانت قد ظلت لهم عقول) على الوقوف عند حدود المسميات والتصنيفات كما لو كانت حدودا نهائية لا مجرد بطاقات تلصق ويسهل تغييرها . بمعنى أنك عندما تقول اليوم النظام الستاليني ، او الهلثري ، تفعل ذلك كما لو كانت تلك الاشياء كوابيس رديئة مرت وانتهت ، وصحونا جميعا من فطاعتها ، بينما واقع الامر ان نظاما مما في عالم اليوم ، لم ولن يقصر ابدا عن استيعاب الركام المتزايد من خبرات ، وتجارب ، واقتحامات كل ما سبقه وكل ما يعاصره من أنظمة ، ياخذها ، فيطورها ، ويطبقها ، ويفيد منها خير فائدة ، وربما - في بعض الاحيان يصبغها بصفة محلية او آنية تتطلبها الضرورة ، فالمادبة ومعاملة الناس كما لو كانوا قطعا من اثاث (كما يصف خروشتشوف معاملة ستالين للناس) يمكن ان تطور ، ببساطة ، وتجدد ، وتحسن ، فيضاف اليها الانفتاح وما اليه ، كما يمكن ان تحل محلها الروحانية الغيبية ، في اماكن اخرى من العالم - او - وذلك افضل - خليط تحار فيه العقول من الروحانية الغيبية ، والسحريات البدائية ، والمادبة الوضعية . تماما كما ان العنصرية الآرية ، التي كانت دعامة فكرية ومنطلقا اساسيا للهلثرية ، يمكن ببساطة ايضا ان تحل محلها العنصرية الجديدة القائمة على الانجاز الحضاري (ممثلا في التقدم التقني) بدلا من الدم والسلالة ، وما احلى ان يكون ما يحل محلها خليطا من معيار الانجاز الحضاري ، ومقولة التفوق اللازم للدم والسلالة ، وبعضا من السوفينية التي ينادي بها سولجنتسين الان . فتغيير الديكورات ، في خاتمة المطاف ، ليس حكرا على احد ، ولا يعني الا ان الشخص

(٩) المرجع السابق ، ص ص ٢٥ - ٢٦ .

(١٠) المرجع نفسه ص ٢٦ .

(١١) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وسام النجم الاحمر .

كما تبينت المحكمة ان التهمة التي وجهت اليه انه في المدة من عام ١٩٤٠ وحتى تاريخ القبض عليه ، قام بدعاية معادية للنظام السوفيتي واتخاذ خطوات لانشاء منظمة معادية لذلك النظام .

وفي اعتراضه المقدم الى المحكمة يطلب المدعي العام العسكري (ويا للعجب) الغاء قرار المجلس الخاص السابق الاشارة اليه ، وشطب القضية ضد المذكور لعدم قيام دليل على ارتكابه ما نسب اليه . وقد حكمت المحكمة بذلك .

وكان ذلك خطأ اخر فادحا من اخطاء النظام (بصرف النظر عن اشخاصه) اذ اعترف النظام علانية ، (وتلك نقطة نحسب للخصم) ان حياة انسان وسيمته وكرامته الانسانية يمكن اغتيالها بورقة كما يمكن ردها بورقة ، واعترف ايضا بان اساليبه ينسحب عليها وصف الابتزاز وتلفيق الجرائم ، تبعا لحكم الضرورة ، وهو ما سوف يعبر عنه سولجنستين فيما بعد ، على لسان احد البيروقراطيين العاملين في جهاز المعتقلات في عمله المدوي الاخير : « ارجيل المعتقلات » .

لكن المهم ان الرجل برئت ساحته من التهمة الشنعاء التي شارفت الخيانة ، ورد اعتباره ، فبات انسانا من جديد ، وبات من المهكّن ان تنشر كتبه ، وذلك بيت القصيد .

ولا نعني ان رغبة حرى انتابت السلطة وجعلت السادة المسؤولين على احر من الجهر شوقا الى جعل تلك الكتب في متناول الناس ، بل نعني ان ذلك كان تحركا اخر ، كغيره ، في لعبة السلطة ، نقلة شطرنج جانبية صغيرة اخرى ، على الرقعة التي ما بعدها رقعة ، التي يتقرر على سطحها من سيقتل من ، ومن ستجري ازاحته وتصفيته من طريق من حتى يتربص هذا الاخير ، بعض الوقت ، ريثما ياتي من يزيحه او يقتله ماديا او معنويا ، ويقعد مكانه مرتاحا ، مسكنا بيده زمام الحياة والموت ، ومفاتيح النعيم والجحيم للملايين البكماء البلهاء التي تنصور ان لها في تلك اللعبة دورا غير دور السائمة التي تساق وتدبح وتسط ، فتتحاز لهذا الجانب او ذاك ، وتتحمس ، وتفلسف ، وتعطي ولادها، وتلغو بأفكارها واقتوال تنصور انها من افراز عقولها المجدية ، ولا تدري انها تلقن اياها في كل لحظة من لحظات صحوها ، وكقطعان السائمة تستدير وتركل بعضها بعضا ، وتفقر ببعضها البعض ، وتبلغ ، وتشي ، وتشهد بائزور كما بقول سولجنستين ، وتكره من يكرهون معذبيها ، وتنشب انيابها في لحم من يحاولون ان يربكوا خطسى جلاديبها .

منذ البداية كان محتوما ان يقع الصدام ، وتكون القطيعة . فصاحبنا سولجنستين وخصومه اشبه بسكان كوكبين مختلفين ، او قل مجموعتين شهيتين يفصل ما بينهما الفضاء العميق .

لقد بلغ من جنون الرجل ان وجه رسالة - بعث بها بصفة شخصية - الى زعماء بلاده ليقول لهم كيف ينبغي ان يحكوا ويسوسوا ، طالبا اليهم العودة الى رحاب الدين ، واطلاق الحريات الى حد معين (فهو لا يقر الحرية السائبة غير المنضبطة) والافراج عن المعتقلين ، ومعاملة الناس بالتي هي احسن . والادهى من ذلك كله انه يطلب منهم فصل الدين (الماركسية) عن الدولة . فهو داخل معهم في معركة اصلاح ديني كذلك التي مرت بها أوروبا في طريقها الى عصر النهضة .

والمسألة ان سولجنستين يرى ان الفرد (الروسي والاوكراني ، وليس غيره) كان له قيمة ، يتمتع بحق لا حق لاحد في حرمانه منه: حق اساسي في ان يقضي حياته بطريقة غير مشوهة وغير مكتوبة . وهو رجل عنيد ، لديه مجموعة من القيم الاخلاقية الاساسية يرى ان الحياة لا تستقيم بدونها .

اما من يتصدى لهم ويعارضهم ، فينظرون الى الامور نظرة واقعية ،

تغيرت ، والافئمة تجددت وتحسنت ، ووراء كل تجدد وتغيير يظل مخترفو الولاء ، مرتزقة القوة ، المنتمون ، كلاب الحراسة ، هم هم لا يتغيرون ، وان تغيرت اسماؤهم احيانا وانقلب سحنهم . ولننظر ما حدث لصاحبنا سولجنستين .

حدث ان القائمين بالتغيير على مسرح الحياة السياسية انشد وجدوا ونيفة مكتوبة بصنعة جيدة يمكن ان تخدم اغراضهم ، وصاحبها كاتب مسكين ، مغفور ، خارج من المعتقل عائد من المنفى لتوه . فاولئك الناس ليسوا حقى ، وليسوا بغالبيين . انهم - مهما بدوا متعاليين متباعدين غير عابئين باحلام ومثاليات ذوي الاحلام والمثل - يعرفون جيدا ما يمكن ان تفعله قصة ، او رواية ، او قصيدة شعر ، او لوحة . واليوم يطرد سولجنستين ، كما يسرد الكتاب والفنانون من كل انحاء العالم ، لان الثوى المناوئة ، التي في الجانب الاخر من الساحة ، تعرف تلك الحقيقة وتعيها جيدا .

غير ان الضرورات تبرر المحظورات ، كما يقولون . وقد كان الوضع مقلوبا في ذلك الوقت من عام ١٩٥٦ ، في اعقاب المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي : فلم يكن الصراع مع كاتب اد فنان ، بل كان مع وطن . في ذلك الوقت كانت قوة صاعدة لم ترسخ اقدامها في اروقة الحكم بعد تحاول مستهتة ان تنسجم ذرى السلطة ، ويقف في طريقها ذلك الصنم الذي كانت قد شاركت في صنعه بحكم ادوارها السابقة في دهاليز السلطة : صنم الزعيم القائد الراس الكبير يوسف ستالين . وبينما تلك الفئة - التي ربما كانت وقتها مدعورة بعض الشيء من عظم ما كانت مقدمة عليه ، ومن شدة ذعرها مستهتة - بينما تلك الفئة تضرب بايديها ، هنا وهناك ، باحثه عن معول آخر تستعين به في هدم ذلك الصنم الصلد الذي ، من كثرة ما عجن به من اكاذيب شاركت في صنعها ، بات عصيا على الهدم ، عثرت فجأة على معول اسمه ايفان نيزوفيتش ، شخصية روائية خلفها كاتب منزو ، ملوث (١) ، مشخ بالجرأح ، بدعى سولجنستين .

وهكذا فانه ، في ٦ فبراير من عام ١٩٥٦ ، عقدت المحكمة العليا بالاتحاد السوفيتي جلسة خاصة كرست باكملها للنظر في الاتراض المقدم من المدعي العام العسكري (ويا للعجب) على قرار المجلس الخاص للبوليس السري الصادر ضد المدعو سولجنستين الكسنتر ايزابيفيتش ، المولود عام ١٩١٨ ، والمتعلم تعليما عاليا ، تطبيقا للمادة ٥٨ فقرة ١٠ والمادة ٥٨ فقرة ١١ من قانون العقوبات .

وهذا ما اكتشفته تلك المحكمة العليا ، بعد ١١ عاما من ادانة الكاتب وتعذيبه في معتقلات سيبيريا : تبينت المحكمة ان المدعو سولجنستين كان ، قبل القبض عليه ، يشغل منصب قائد بطارية مدفعية ، وبهذه الصفة اشترك في الحرب ضد الجيوش الفاشية النازية وابلى بلاء حسنا في الذود عن حياض الوطن ، ومنح وسامين منهنما

(١) (ملوث) سياسيا ، بطبيعة الحال . فالرجل لم يسرق من احد ولم يشرع في قتل احد ، وكل جريته انه فكر وعبر عن رايه . وحسبما جاء في تقرير لجنة رد الاعتبار : انحصرت الادلة (التي قضى الكاتب بفضلها احد عشر عاما في المعتقلات والمنفى كما لو كان من عتاة المجرمين) في انه ، في رسائله الى صديق له يدعى ن.د. فيكيفيتش ، وفي يوميات كان يحررها لنفسه ، درج - رغم انه امتدح دائما صحة الماركسية اللينينية ، وفرط باستمرار تقدمية الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ، وقرر حتمية انتصار تلك الثورة في العالم اجمع ، واكد ايمانه - درج رغم ذلك على الحديث عن شخص ستالين بلهجة تفتقر الى الاحترام ، وكتب عن النقاظ الفنية والايديولوجية التي تسيب اعمال كثيرين من المؤلفين السوفيت ، وانقد الجو غير الواقعي الذي يسود الكثير من تلك الاعمال ، كما كتب ايضا في رسائله ويومياته تلك ان اعمالنا الفنية تقصر دون اعطاء القارئ في العالم البورجوازي فكرة شاملة . الخ .

ببساطة ، وبغير كل تلك التعقيدات والشطحات المثالية . فهم اناس لا اوهام لديهم عن الناس ، يدركون ان الفرد الانساني (في روسيا واوكرانيا كما في غيرها) كائن عضوي اساسا ، يريد ان يجد كفايته من الطعام والدفء وقدرًا معقولا من الطمأنينة حتى وان كان ثمن ذلك كله الاستسلام الكامل والتنازل عن كل ما يميزه عن القردة ، ويعرفون ايضا انه مخلوق معقد ومرتبك (من كثرة ما حظ عليه من بلايا) يخاف ويتألم ، ويهوت شوقا الى يد قوية تقوده وتخضعه وتوجهه وتسوسه ، فيلعقها . وانه ، ذلك الفرد ، بغير ذلك كله ، سواء كان ذلك بمحض رغبته واختياره او لم يكن ، حري بان يشطح وان ينطرح ويخل بنظام الاشياء . ويعرفون ايضا ، اولئك الذين ينازلهم الكاتب ، ان الندرة منشا القيمة (فهم اناس درجوا على النظرة الاقتصادية الموضوعية الى الامور) ويدركون ان كثرة الناس الكثيرة جعلت قيمتهم قليلة، ان لم تكن قد جعلتهم ، في ظروف بعينها ، عديمي القيمة ، وانه اذا مات منهم مليون او اثنان ، او سجت بضعة ملايين ، سيحل محل كل مليون يموت او يسجن مليونان او اكثر ، فما كل هذا الضجيج ؟ وما من شك في ان سولجنتسين (بعد سداجته الاولى التي جعلته يسجل افكاره بالكتابة في رسائل ويومييات) فطن الى ذلك كله مبكرا ، عندما ارتكب خطاه الكبير الثاني ، ودخل في اول تجربة له واول تعامل مباشر مع القوة التي قضى عليه بحكم اختياره ان يكون كاتبًا وشريفًا ، ان يظل ابدا في موقف المعارضة والمناوأة لها . ونعني بذلك تجربة نشر روايته الاولى : « يوم في حياة ايفان دنيروفيتش » التي كتبها (وما اصدق التعبير هذه المرة) بدم قلبه كما يقال : فاذا بها تستخدم كمجرد منشور دعائي مساعد في حملة ضد زعيم سابق اقتضت مصلحة زعيم لاحق ان يجرد من هالته التي كان قد شارك في صنعها . يقول الكاتب : « وخلال تلك الشهور (التي اعقبت نشر الرواية تحت جناح خروشتشوف) بدا لي اني قد ارتكبت خطأ لا يفتر بالكشف عن عملي قبل الاوان ، واني - نتيجة لذلك - لن استطيع ان اتم ما كنت قد عقدت العزم عليه . . والحقيقة انه بدا لي ان هذا الخروج الى العراء عمل محفوف بالمهالك قد يؤدي الى ضياع مخطوطاتي ، بل وقد يؤدي الى هلاكي شخصيا (١٢) . فهو يقول ضمنا انه تعاون مع الخصم وكشف نفسه وان ذلك قد يفضي الى هلاكه .

في بداية ديسمبر من عام ١٩٦٢ ذهب خروشتشوف ليفتح معرضا للفن السوفيتي المعاصر ، فجال في المعرض جولة ، ثم توقف وقصد احتقن وجهه غضبا وقال : « ما هذا ؟ هؤلاء الناس يصورون بذيل حمار ؟ » وبمدها اعطى موافقته ، وبارك ، حملة (او بالتعبير الصيني ، مقدمات ثورة ثقافية محدودة) كانت تنتظر اشارة مهما صغرت لتنتقل من عقابها ، ضد المجددين والمجربين من كتاب الاتحاد السوفيتي وفنانية التشكيليين الذين ضلوا عن سراط الاشتراكية الواقعية المستقيم . لكنه تحفظ ، بل دافع ، فيما يتعلق باثنين او ثلاثة من اولئك الكتاب والفنانين : سولجنتسين ، والشاعر يفنوشكو ، ومصور .

ولا تبلغ السداجة باحد ، فيما نظن ، ان يتصور ان الرجل فعل ذلك انطلاقا من موقف جمالي او قناعة نقدية ما . ولنقرأ قيمة سولجنتسين ويفنوشكو بالنسبة اليه فيما كتبه بالفازنية الادبية في ١٢ مارس ١٩٦٢ ، اي بعد حكاية ذيل الحمار بثلاث شهور :

« (المشاهد) ان الكتاب والفنانين اخذوا ، في السنوات الاخيرة ، يركزون تركيزا خاصا على ذلك الفصل من حياة المجتمع السوفيتي الذي ارتبط بعبادة شخص ستالين . وذلك تركيز منطقي وله ما يبرره .

(١٢) سجل وناقني عن سولجنتسين ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٢٧ .

ولقد تمخض الاهتمام بتلك الفترة عن ظهور اعمال تعكس بصدق - انطلاقا من موقف الحزب - الواقع السوفيتي كما كان خلال تلك السنوات . والرء مستطع ان يضرب المثل على ذلك برواية الكسندر سولجنتسين : « يوم في حياة ايفان دنيروفيتش » ، وبعض اشعار يفنوشكو ، ولوحة المصور جريجوري شوخاري « السموات العافية » .

« ان الحزب يمنح بركته وتأييده للاعمال الفنية الخلاصة الصادقة بحق ، مهما كانت السليبات التي تناولها تلك الاعمال وتغوص فيها ، ما دامت تساعد شعبنا فيما هو جاهد فيه من بناء المجتمع الجديد ، وتزيد قوى الشعب صلابة وتصميما وتزيد تلاحمها معا » .

تلك كلبية السلطة . تحلل الحرام وتعود فتحرمه . هل يختلف « ارخييل المعتقات » في شيء عن « يوم في حياة ايفان دنيروفيتش »؟ نعم ، يختلف . « يوم في حياة ايفان دنيروفيتش » كان يشهر بستالين في وقت تصادف ان كان ذلك الشهير بستالين فيه امرا مرغوبا . واما الان ، فبمن يشهر سولجنتسين وهو ينشر « ارخييل المعتقات » في الغرب ؟

ولنلق بسمعنا الى خاتمة ذلك العمل الذي قرظه خروشتشوف وضرب به مثلا :

« والان ، الى تلك القطعة من السجق . الى الغم راسا . دع اسنانك تفوص فيها . الطعم اللقيم . مذاق العصاراة اللحمية . شيء لا يوصف . ها هي تنزل . تنزلق . الى بطنك . ذهبت .

وعندها قرر شوخوف (بطل القصة) ان يحتفظ بالبقية الى القد ، لينتد بها ، قبل طابور الصباح .

ودفن راسه في البطانية النجيلية الرثة التي لم تفسل ، وقد بات الان اصم لا يسمع ضجيج الانفار في النصف الاخر من العنبر وهم يستعملون لان بعدهم الحراس .

واستسلم شوخوف للنوم وهو في بلهية من القناعة الكاملة والرضى . لقد حالفه الحظ اكثر من مرة في ذلك اليوم : فلم يلقوا به في الترنانات ، ولم يبعثوا بفرقتهم للعمل في العراء ، وقد سرق بعضا من الحساء وقت الغذاء ، ولم يسرقه قائد المجموعة فيما اعطاه اياه من نقط ، وقد قام ببناء حائط واستمتع ببنائه ، وقد هرب تلك القطعة من سلاح المنشار ، وقد كسب في لعبة قمار ، وقد اشترى ذلك الطباقي ، ولم يمرض ، ولم يموت ، بل عبر بذلك اليوم حيا وسالما .

يوم بغير سخابة فائمة . يوم كاد يكون سعيدا .

وفي مدة عقوبته ثلاثة آلاف وستمائة وخمسون يوما اخرى كهذا اليوم » .

تكررت الاخطاء من الجانبين اذن وتلاحقت . ويبدو ان كلا الطرفين اخطا تقدير امكانيات الاخر . فاقدام خروشتشوف على استخدام « ايفان دنيروفيتش » كان خطأ - من وجهة نظر النظام - لا يقل خطرا عن الخطأ غير المقصود الذي ادى الى عدم اكتشاف حقيقة سولجنتسين في الوقت المناسب ، وتركه - نتيجة لذلك - حيا وحرا ليتعلم ، ويتم تعليمه ، ويكتب ، بل وتركه يدخل المعتقل ويخرج منه حيا . فرغم ان ذلك التحالف المؤقت بين القوتين (الكاتب والنظام) في سبيل مصلحة عابرة للنظام ، بدا في حينه كمجرد نقلة صغيرة جانبية على رقعة الشطرنج كما قلنا ، فما من شك في انه فتح الطريق امام سلسلة من العواقب الوخيمة وردد الفصل الخطرة لم تنته بعد . فلولا نشر ايفان دنيروفيتش منذ الذي كان سيسمع بسولجنتسين ؟ فوق ان سابقة اجترار كاتب على النظام ومهاجمته بالصورة التي « اجمه سولجنتسين بها في « ايفان دنيروفيتش » قد

وجدت ، وترسخت ، ولم يعد هناك ما يلغها . ولقد اثبت النظام بسماحه بنشر الرواية انه من الممكن فعلا ان يقع ذلك الهجوم المدمر على عهد من عهوده من جانب الخصم التقليدي : الكاتب التمرد . ولقد تطور الهجوم على سنالين في تك الرواية الاولى الى هجوم على النظام كله ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، بل وعلى المذهب كله ، في بقية اعمال الكاتب .

ولكي نلم بابعاد الصورة ونقف على جدية ما وصفناه بالاخطاءها ، لنفسي بسمنا الى خروشتشوف ذاته وهو يقول :

« ان الاعمال الابداعية ، خاصة الافعال الادبية التي يدعها الكتاب ، تميل الى التدخل في المجال السياسي لان العملية الفنية القائمة على تحليل العلاقات المتبادلة بين الناس وبعضهم بعضا ، وبوجه خاص تلك العلاقات القائمة بين اولئك الذين في السلطة ، من جانب وبين الشعب العامل ، من جانب اخر ، تلك العملية تشكل جزءا لا يتجزأ من الاعمال الادبية الخلافة . وبذا فان الكتاب يخوضون باستمرار في قضايا فلسفية وايدولوجية يرى اي حزب حاكم ، بما في ذلك الحزب الشيوعي السوفيتي ، انها من شأنه وحده ، بل حكر عليه وحده ، وفي اختصاصه لا من اختصاص الكتاب ، والواقع ان الاجراءات الادارية (التي تتخذها السلطة او تتخذ لحسابها من جانب الهيئات المعاونة) في مجال التعامل مع العقول المبدعة الخلافة تكون دائما مدمرة للغاية وغير تقدمية بالرة » . (١٣) .

الرفض والغضب :

لقد كان من المحتمل ان تلحق « يوم في حياة ابغان دنيوفيتش » ، بين يدي كاتب اخر ، « بمحاكمة » كافكا . فانشغالات الاثنين واحدة : ما الذي يفعله بالفرد مجتمع القرن العشرين ؟ لولا ان كافكا كان مهتما بالفرد الانساني على اطلاقه ، وسولجنتسين مهتم بالفرد الروسي والاوكراني الان ، في ظل الماركسية . ولولا ان سولجنتسين من طينة اخرى مختلفة تماما عن طينة كافكا المرهفة العصابية الرتاعة . ففي مواضع كثيرة يعيد سولجنتسين الى الذهن صورة تولستوي الذي كان من فرط الايمان راسخا لا يزغعه ولا يشككه في رؤاه شيء . ولا نعني هنا رسوخ الشجاعة او البطولة . وانما نعني الرسوخ في الحياة ذاتها (ملونة ومعجونة - بطيخة الحال ، بماء العقيدة المقدس) التثبيت بتربتها ، بكل ما فيها من طيب وخبث واحجار ووحول واشواك واشياء مينة وعظام نغرة تحت القشرة الرقيقة الهشة من الخضرة والزهور . فسولجنتسين يقبل الحياة بشروطها ، وان كان لا مانع لديه احيانا من املاء بعض شروط عقائدية او مثالية . والذي يبدو من اهتماماته ان كل ما يطلبه هو ان يترك الناس ليعيشوا احرارا ، حرية منضبطة ، في رحاب عالم يريد له ان يعود الى احضان الطبيعة ، ولكن مسلحا بالدين . ولقد قلنا ان الرجل تنطق كتاباته بالغضب ، وضيعة الوهم ، ونفاد الصبر . اصغ اليه وهو يقول في ختام موكب عيد الفصح :

« هذه الملايين من البشر التي ربيناها ونشاناها هذه النشاة ، ما الذي سيحدث لها ؟ الى أين اودت بنا الجهود المستنيرة والرؤى الملهمة للمفكرين العظام ؟ اي خير يمكن ان نتوقعه من اجيالنا المقبلة ؟

الحقيقة ان هذه الملايين ستستدير يوما وتطانا باقدامها . اما

اولئك الذين دفعوا بها الى هذه الدرب ، فما الذي سيحدث لهم ؟ ابدا . ستستدير هذه الملايين وتطاهم باقدامها هم ايضا » . (١٤) .

الكلام واضح ، فيما نلن ؟ الملايين قد حولت الى سائمة خطيرة ، ولسوف تستدير فتطأ الجميع ، وربما بعضها بعضا ايضا ، باقدامها . ومن المستول عن هذا ؟ الرؤى الملهمة والافكار العظيمة . الماركسية . الا تحس نبض الغضب ؟ الا سمع زفرة الحق ونفاد الصبر ؟

ولقد رسخت ، بفضل هذا كله ، وبفضل ما كتبه ويكتبه نقساد الغرب ودعائه عن سولجنتسين ، رسخت للرجل صورة ، ورسخت حول رأسه هالة ، بوصفه المناضل الاعظم دفاعا عن الحرية والقيم الاخلاقية العليا في وجه كلبية النظم الشمولية وضراوتها وتحكمها في رقاب العباد . فهل الرجل كذلك حقا ؟ وهل تلك هي قضيتته ؟ تلك في اعتقادنا المسألة الاساسية في قضية هذا الكاتب . لانه ان كان كذلك حقا ، وان كانت الاستماتة الى ما يقرب من الاستشهاد دفاعا عن الحرية والقيم الاخلاقية العليا ، واولها العدل ، جوهر موقفه ، فكل ما فعله ويفعله مبرر ويستحق تلك الهالة التي البسته صحافة الغرب ولجنة جائزة نوبل اياها واكثر . اما اذا لم يكن ، ولم يكن تلك قضيتته ، فاي شيء يكون الرجل ؟

يبدو الجهاز اللاشخصي ، الشئوم ، الباعث على الرعب ، الذي لا يرحم ولا يكره ، والذي يحرك الناس والاحداث وصنوف المحق واللوان الشقاء في « يوم من حياة ابغان دنيوفيتش » اشبه بروبوت ضخيم ، غير مرئي ، مبرمج ، لا يعيد عن التعليمات التي لفتت لدوراته الالكترونية ، ذاهبا الى الغاية التي صنع من اجلها ولا غاية غيرها ، وهي تحويل كل اولئك الناس الذين القى بهم بين فكيه ، الى نفاية انسانية مضموغة ، اسراب من الوتى الاحياء . ولا نقول قطمان من الحيوانات ، لان الحيوانات مظلومة معنا دائما ونحن نتعالي عليها بينما هي تمتاز عنا بما فيها من عنف وخفة وحياة ونبل خاص بها . اما تلك الكائنات الرخوة الزاحفة التي ينهسي امرها الى ان يتركز كل وجودها في كسرة خبز اضافية تسرقها وتخفيها تحت اسمائها لتاكلها وتلذذ بها عندما تنفرد بانفسها لبل ، حتى تنمغن من العيش يوما آخر ، فنوع اخر جديد ، في سلسلة التطور ، اوجدته ، كما يصوره لنا سولجنتسين ، الرؤى الملهمة العظيمة في مسيرتها الظاهرة نحو الغد المشرق والفردوس الارضي .

ولقد يساعدنا على الفهم اكثر ان نقرأ ، في « ارخيل المعقلات » ما يقوله السيد البيروقراطي المسئول في احد تلك المعقلات التي تكاثرت وازدهرت في ذلك الارخبيل الرهيب لتستوعب وراء اسوارها عددا يتراوح بين ١٠ و ١٥ مليونا من البشر . يقول السيد المسئول لاحد السجناء ، شارحا له المفهوم القضائي الذي يجري تحويله بموجبه ، كالملايين من امثاله ، من شخص الى شيء : « اسمع يا صاح . ان كان من الضروري ان نعدم رميا بالرصاص ، فستعدم رميا بالرصاص ، مهما كان من امرك ، وايا كانت الظروف . حتى وان كنت بريئا . اما اذا كان هناك ما يدعو الى اكتشاف براءتك ، حتى وان كنت مذنبيا ، فانك ستطلى بطيخة من الطلاء تخفي كل مساوئك ، وتجعلك بريئا . هذا كل ما في الامر » .

اما ضيعة الوهم ، فلنقرأ في شأنها معا هذه القصيدة من الشعر المنثور التي اسمها سولجنتسين « بحيرة سجدن » : (١٥) .

« لا احد يكتب عن هذه البحيرة ، الكل يتحدث عنها همسا كما لو كانت قطعة غيلان مسحورة سدت كل الطرق المؤدية اليها على كل طريق عثقت لافتة لا سبيل الى تجاهلها كتب عليها سطر واحد، بسيط ، فظ في صراحته، لا التواء فيه يقول: كل حي، حيوانا كان ام انسانا ، متى واجه هذه اللافة ، عليه ان يعود ادراجه .

هناك قوة ارضية ما ، وضعتها هناك ، تلك اللافتة ، والى ما ورائها لا يستطيع ان يمر احد : راكبا كان ، ماشيا ، زاحفا ، او طائرا .
حراس يحملون سيوفا وغدارات يكمنون متربصين قرب الطريق في اجمة الصنوبر المجاورة .
وبوسعك ان تلف في الغابة الصامتة وتدور بحثا عن طريق الى البحيرة
لكنك لن تجد طريقا ، ولن تجد من تسأله
لانه لم يمد هناك من يذهب الى تلك الغابة .
لقد فروا جميعا ، والخوف في اعقابهم .
وفرصك الوحيدة لبلوغ البحيرة
سوف تأتيك ذات اصيل ، والمطر يهطل فيخفيك ، على درب الماشية وحاديك اليها سيكون الرنين المكتوم لجرس معلق في عنق بقرة .
بحيرة خبيثة ، في غابة خبيثة
ان كان هناك عالم وراء الغابة فانه مجهول ، وغير مرئي وان كان له وجود ، فانه لا مكان له هنا .
ها هنا مكان يمكن ان يحط المرء فيه رحاله الى الابد .
ها هنا مكان يستطيع المرء ان يعيش فيه على وفاق مع العناصر ،

ويبلغهم .

لكن ذلك لا يمكن ان يكون :
فأمير فاسد شرير أحول العينين
قد ادعى ملكية البحيرة لنفسه ، واخذها .
ها هنا الان بينه ، وها هنا مكان استحمامه
وها هنا ناتي سلالة الشر التي انجبتها لاستمتع بصيد السمك
وصيد البظ بالرصاص من قاربه
ترى العين اولاهبة من دخان ازرق فوق البحيرة
ثم - بعد لحظة - تسمع الاذن صوت الرصاصة .
وبعيدا ، فيما وراء الغابة ، يعرق الناس ويكدحون
بينما كل الطرق المفضية الى هذا المكان مسدودة في وجوههم
لئلا يأتوا فنظفوا هنا
فالسماك والصيد يربى هنا لمتعة الأمير الشرير وحده
هنا اثار نار كان قد اوقدها شخص ما ثم مضى
لكنها اطلقت وطوردت من هنا
البحيرة الحبيبة المهجورة .. ارض بلادي »

وقد لا يكون هذا شعرا جيدا ، وقد لا تكون فيه صنعة فنية حاذقة . فالشاعر (ان صح ان سولجنستين فيه شعر) لا يجد حرجا - في ختام القصيدة بوجه خاص - من ان يضع تحت معناها خطا فيقول : « البحيرة الحبيبة المهجورة .. ارض بلادي » . اي اصح ايها القارئ . هذا الذي قلته كله عن روسيا . فالرجل ، كما وصفه زخاروف « داعية » Publicist ما في ذلك شك . فهو مهتم بالدعوة لافكاره والدفاع عما يراه ضروريا وحيويا لاعادة تعمير البحيرة المهجورة ، وطرد الغيلان من القلعة ، ورد الغابة وما فيها الى اصحابها الروس والاوكرانيين الذين يعرقون ويكدحون خارج الغابة ، اكثر من اهتمامه بمسائل تكون الفن اضمارا لا اجهارا وما الى ذلك . وهو واضح نصب عينيه ، سواء في مناظراته ومطارحاته او في اعماله الابداعية ، هدفا اساسيا هو توصيل رسالته الفكرية الى القارئ باكثر الطرق يقينا .

وهو يفعل ذلك ببساطة ، ودون ان يطرف له جفن ، البرة تلو المرة . في موكب عيد الفصح يظل يصف شخوصه وخلقيتها وصفا تسجيليا مباشرا لاكثر من نصف الفصة ، ثم - فجأة - يقول : « وهذه هي بداية الصورة التي اريد ان ارسمها ، ان استطعت : رعب رجل الدين وخوفه من ان يحدق به بناء المجتمع الجديد ، وبشوا فوفه ، فيشبعوه ضربا » . (١٦)

فهل يسير سولجنستين في ظلال الواقعية الاشتراكية الوارفة اذن ؟ اطلاقا . فهو ابعد ما يكون عنها . وهو رغم انشغاله بالمنساقرة والدعوة ، ورغم عدم اكترائه الواضح لكثير من القواعد الجمالية ، يتوصل بطريقة ما الى اعادة دم الحياة للكتابة الابداعية الروسية ، ويردها الى ترائها القديم باذخ الثراء ، من خلال الالتزام - ببساطة بالغة - بواقعية الصدق لا اكثر . ولعل الاسطر التالية تفسح عن طبيعة تلك الواقعية التي تتجاوز بصدقها ، وحرارة ايمانها (مهما اختلفنا مع ذلك الايمان احيانا) ، وبساطتها ، كل تصنعات وتظاهرات الواقعية الاشتراكية ، ذاهبة الى النبع الحي لهذا الادب العظيم :

« يقول لنا العارفون بأصول الفن ان الفنان لا يجب ان يصور كل شيء على ما هو عليه ، اي لا يجب ان ينسخه . ويفولون ان التصوير الفوتوغرافي الملون يفعل ذلك وبجديه ، واننا - باستخدام الخطوط والاشكال - ينبغي ان نوصل جوهر الشيء لا الشيء نفسه . واننا لا ارى كيف يستطيع التصوير الفوتوغرافي الملون ان يلتقط ما هو ذو مغزى ... » (١٧)

سولجنستين وفجوة الادب السوفيتي :

ان كان سولجنستين ، بتدينه العميق ، ونظمه الى مجتمع (قديم بعض الشيء) يلعب فيه الدين وخشية الله دورا رئيسيا ، وان كان ، بمكتسباته الاخلاقية ، وتمسكه بان الصدق نبع كل جمال ، والقيمة الاخلاقية جوهر الفن ، ان كان بذلك كله يذكرنا بمواطنه تولستوي ، وان كان - بانشغاله العميق بصنوف الرعب والمحق والاذلال التي تطبق على الفرد الانساني ، بشكل حاد ولحوج وتكرر ، في هذا العصر - يذكرنا بكافكا (وكل ذلك مع الفارق الكبير : فارق العصر ، والبيئة ، والخبرة الحياتية والثقافية ، والمزاج الشخصي ، والقناعات الشخصية ايضا) ، ان كان سولجنستين يذكرنا بهذا او بذاك ، او بكليهما معا ، في بعض جوانب بعينها من كتاباته ، وبعض ملامح بعينها في نظراته الى الامور ، فانه يذكرنا بكاتبين انجليزيين من كتاب الثلث الاول من هذا القرن (باعتبار ان الفترة التي اكتمل فيها نضجهما الفكري وتحددت مواقفهما كانت في فترة ما بين الحربين) ونعني بهما : كاتب البيوتوبيا - الضد جورج ارول (وقد تكون الارض المشتركة بين سولجنستين وبينه ضيقة الوهم في امكان تحقق حلم البيوتوبيا) ، وديفيد هيربرت لورنس (وقد تكون الارض المشتركة بين سولجنستين وبينه ارض الرفض ، والفضب ، وخيبة الامل ، ونفاد الصبر ، وارض الكراهية العميقة لطريقة الحياة التي اوجدها العصر الصناعي .)

والواقع ان قدرا كبيرا من اهمية سولجنستين (على المستوى الادبي) نابع من كونه يمثل ما يبدو كالثام طال انتظاره للفجوة الفاغرة التي لا سبيل الى تجاهلها بين الادب السوفيتي وسائر آداب البلدان المتقدمة صناعيا . والمشكلة ان الاتحاد السوفيتي الذي يقف - على المستوى التقني والعلمي - على قدم مساواة مع الغرب المتقدم ان لم يسبق كثيرا من بلدان ذلك الغرب ، يتخلف عن كثرة من تلك البلدان تخلفا ملحوظا في فنون بعينها . لانه ، اذا ما استبعدنا فنونا جماعية (كالباليه ، والسيرك) حقق فيها الاتحاد السوفيتي وثبات واسعة

(١٦) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(١٧) سولجنستين : فصص وفصائد من الشعر المنشور ، ص ١٠٤ .

ماتريونا» لسولجنستين ، تكاد تحس انك تمر بتجربة déja - vu (★) اديبة غربية ، بل وقد تحس انك تقرأ من « الطريق الى رصيف فيجان» ، او « الطفو لاستنشاق الهواء » ، لارول ، او « ابناء وعشاق » للورنس :

« كانت مدخنة احد المصانع تسكب فوق القرية كلها دخانا اسود ، وخط السكة الحديد الضيق ينالوي ، فيشطر القرية شطرين ، لتفتحهما قاطرات صغيرة ، ترفرف هي الاخرى سحبا كثيفة من الدخان ، وتطلق صغبرا نحيلنا نقبا ، وهي تجر وراءها عربات محملة بالخث وقوالب الفحم الحجري . وفوق هذا كله صح ما توقعته من وجود جهاز للراديو والاسطوانات يعربد بالموسيقى الصاخبة طيلة المساء ، في النادي القمء ، ووجود السكرارى الذين يخطئهم العد ، متطوحين في الطرقات ، تملو اصواتهم بالشجار والسباب ، بين الحين والحين ، ويطعنون بعضهم بعضا بالسكاكين . وهذا هو المكان الذي جاء بي اليه حلم ظل يراودني في العثور على ركن هادى قصي ما من روسيا استطيع العيش فيه . (١٩)

والكتاب هنا ، كما هو واضح ، بروي تجربته الشخصية . فكل ما يكتب اعادة خلق لوقائع واحداث وشخوص من واقع سيرته الذاتية ، بغير كبير تحريف . وهذه القرية التي يصفها كما لو كان ارول او لورنس هما اللذان يصفان قرية من قرى « الابدلانز » في بريطانيا ، كان قد ارسل اليها - بناء على طلبه - بعد عودته من المنفى في كازاخستان ، ليعمل مدرسا للرياضة بمرستها الابتدائية ، متصورا - كما يقول - انه سيجد فيها مستقرا . ولكن : « لقد كنت في منفاي - بالاقل - اميش في كوخ من الطين ، على حافة الصحراء ، فكانت الريح تهب علي بالليل نظيفة ندية ، والسماء تخيم فوق صافية شاسعة ترصعها النجوم . والان آتي الى هذه القرية ؟ » (٢٠)

هذا جانب من جوانب الشبه بارول . ولكن اسمع لسولجنستين (وذلك جانب اهم) وهو يقول : « ان التغذية اليومية الاجبارية الشاملة بالاكاذيب باتت اشد اوجه العيش في وطننا تعديبا للنفس واكثرها فظاعة ، بل هي أسوأ من كل صنوف شقائنا المادية ، واعنى من اي افتقار الى الحريات المدنية . فكل هذه الترسانات من الاكاذيب (وهي ليست ضرورية على الاطلاق لاستقرارنا كدولة) نرفض كنوع من الاتاوة علينا ، ندفعها لحساب ايدولوجية بعينها ، عملا على تثبيت الاحداث ، دقها دقا بالمسامير ، واحكام وناقها الى تلك الايدولوجية الميتة ، الضارية ، حادة المخالب .» (٢١) اليست هذه بعينها تصورات ارول الكابوسية عن وزارة الحب ، والكذب هو الصديق ، والحرب هي السلام ، في ايدولوجية ١٩٨٤ ؟

نعم ، هناك اوجه شبه عديدة بين سولجنستين وارول ، وهي التي تجعل تلك الجوانب الاخرى الشوفينية اكثر ايلاما للنفس ومدعاة للدهشة . فما دام الرجل يعرف كل هذا ، وما دام حدسه وتجربته المباشرة قد اوقفاه على هذه الوجة من القبح في الحياة المصاهرة ، كيف يتأتى ان يطلب الخلاص لاناس دون اناس ويقول دعوا الاخرين

(★) déja - vu من الظواهر النفسية المعروفة . وتطلق على حالة نفسية يخيل فيها للمرء بدرجة تقرب من اليقين ، اذ يزور مكانا بعينه ، او يقابل شخصا ما ، او يمر بتجربة معينة ، انه سبق ان زار ذلك المكان ، او قابل ذلك الشخص ، او مر بتلك التجربة من قبل ، دون ان يدري اين ومتى وفي اية ظروف حدث ذلك .

(١٩) سولجنستين : قصص وقصائد من الشعر المنشور ، المرجع

السابق الاشارة اليه ، ص ١١ .

(٢٠) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٢١) رسالة .. ص ٤٧ .

الى الامام ، اين يقف وطن دستويفسكي ، وتشيكوف ، وبوشكين ، وجوجل ، وتولستوي ، من فرنسا مثلا او غيرها من بلدان الغرب المتقدم ، في مجال الابداع الادبي ؟ ولعل هناك مواهب مدفونة بحكم الاجراءات الادارية التي حدثنا عنها خروشتشوف في مذكراته . بل وما من شك في ان تلك الاجراءات - بالإضافة الى جمود وضيق افق وتعصب مدرسة النقد الاثوذكسية (وقد اکتوبنا نحن بنارها هنا في العالم العربي امدا طويلا على ايدي المقلدين الكبار) - ما من شك في ان تلك الاجراءات الادارية والتقدية تحمل قدرا كبيرا من وزر ذلك التخلف الادبي ودفن المواهب او قتلها . ولا ننسى ان من التهم التي ارسل سولجنستين الى سيبيريا بسببها انه كتب شيئا كهذا في مذكراته ومكاناته الخاصة . والنتيجة ؟ النتيجة ان سولجنستين يبدو الان كما لو كان بداية عصر ادبي جديد انتهت منه اوربا الغربية قبل ثلاثين عاما ويبدأه الادب السوفيتي بالكاد ، وبأوجاع مخاض لا توصف: باستراك ، وسلالة الابداء والمثقفين المنشقين ، وسولجنستين .

ومن اوجه عديدة يذكرنا سولجنستين - باهتماماته وانشغالاته الفكرية والاخلاقية - بكتاب كتاب ما بين الحريين الذين اشرفنا اليهم ، باتت اعمالهم والقضايا التي انشغلوا بها ، الان ، من كلاسيكات الادب الاوربي الحديث . وفي نفس الوقت (وذلك من تناقضاته الملفتة للنظر) يمثل سولجنستين ردة فكرية الى ما قبل ليبرالية اولئك الكتاب الذين عاصروا بدايات الازمة الاوربية ابان الحرب الاهلية الاسبانية وعبروا بليبراليتهم الوردية تلك (كما عرفت آتئذ) عن انقسام عالمهم الذي كان وشيكا . فسولجنستين الذي يبدو منغمسا حتى قمة الرأس فيما كان كتاب كارول او جيد او كويستلر منغمسين فيه منذ ثلاثين سنة واكثر ، يفضح في بعض اوجه فكره واتجاهاته التي تبدو كيبلينية (نسبة الى كيبلينج) بعض الشيء عن ردة على ذلك الموقف الليبرالي الوردية (اي الليبرالي المشرب بشيء من التقدمية) تمثل تيارا يزداد قوة في الفكر الغربي الان ، ويعبر عن ذلك التيار الشوفيني المنسلخ عن الانسانية كفكرة عالية بافضل واجرا مما يشكله اشهر كتاب الغرب المعاصرين ، ربما لان اولئك الكتاب ما زالوا يحسون بقدر من التنوع والخشمية والتردد ازاء المفزى القبيح الذي ينطوي عليه الارتداد الى ذلك الموقف الذي ينادي به سولجنستين . ولقد يكون ذلك مستولا بعض الشيء ، ومن بعض الوجوه ، عن تحمس اجهزة الاعلام الغربية الزائد لسولجنستين .

جورج ارول :

وتحازي سولجنستين مع ارول (رغم ملامح الردة هذه) له اكثر من وجه ، وله وشيجة رحم بالقرابة الفكرية مع كافكا (فسي مجال انشغالاته ، كما قلنا ، لا في مجال استجلاؤه لابعاد تلك الانشغالات في رؤيته الفنية) . فاطابع السياسي الغالب على كتابات ارول ليس في حاجة الى من يشير الى الخطوط الموازية له في كتابات سولجنستين . لكن الاهم من ذلك ، التماثل بين موقفه الادائي للذين يتخلهما الاثنان - على ما بين الكاتبين من فارق زمني واسع وتباين في الخلفية الثقافية - من العالم الغربي بوجه عام ، والحضارة الصناعية بوجه خاص .

فانت اذ تقرأ لسولجنستين رسالته الشهيرة الى الزعماء السوفيت ، وتسمعه قائلا : « ان الهزال النكباتي الذي اصاب العالم الغربي ، والحضارة الغربية ككل ، نتج عن ازمة تاريخية ، نفسية ، وخلقية ، فعلت فعلها في الثقافة الغربية برمتها ، والنظرة الغربية الى العالم ، اللتين خلقهما عصر النهضة ، » (١٨) فكانك تقرأ ارول حرفا بحرف .

وانت ، من جانب اخر ، اذ تقرأ اسطر كهذه من قصة « بيت

(١٨) رسالة .. ص ١٨

لصبرهم ؟ ربما لان اولئك الاخرين الوانهم داكنة ؟ ربما لانهم لا يبدون بالمسيحية ؟ ولكن شعوب اميركا اللاتينية كلها تدين بالمسيحية. المسألة عنصرية اذن ؟ قصر نظر ؟ ام هي مسألة عدم فهم ؟

والحقيقة ان تلك الوجة من النسب تبدو غير عميقة ، ولا نذهب الى ما تحت الجلد بكثير . فالكاتبان قد يختلفان الى درجة التضاد ، على المستوى الاعمق ، رغم ان منطلقهما واحد : اليقين الاخلاقي بحق الفرد في شيئين اساسيين لا تستقيم له حياة غير مشوهة بدونهما : الحرية الفردية ، والمسئولية . وجنبا الى جنب مع ذلك المنطلق ، وبالضرورة ، يفصح الكاتبان ، وبنفس القوة ، والحيرة ، والارتباك ، عن مقتنهما للدولة ، على الاقل ، في شكلها الذي يناصبانه العداء . ونقول الحيرة والارتباك لانه لا هذا ولا ذاك استطاع التوصل الى تصور ما يمكن ان يكون بديلا لما يعتقد ويناصبه العداء . وفيما يخص ارول ، فان كل من قرأ كابوسيته ١٩٨٤ ، التي باتت من كلاسيكيات الادب السياسي الحديث ، يعرف جيدا عم نكلم . اما فيما يخص سولجنتسين ، فالامر مرئيك ومجرب حقا ، لانه - في النهاية - يدعو الى دولة طاغوتية ، قد تكون لاهوتية ايضا . ولهذا فانه لا يبدو غريبا ان يشابه الكاتبان خارجا ويختلفا باطنا ، الى حد التضاد . وبايجاز ، هو خلاف بين التساؤم والتفاؤل . فصاحبنا سولجنتسين مؤمن ، ومتفائل بالتبعية ، بينما ارول ، المثقف الغربي المشكك ، الغهوس حتى قمة الرأس في احباطات الثقافة الغربية وخيبات املاها ، لا هو مؤمن ، ولا هو متفائل ، فيما يخص الفرد ومستقبله او احتمالات خروجه ، من موجة المد الشمولية العانية التي تتجتاح العصر ، حيا ، وكاملا ، وانسانا . انت تعرف ما حدث لبطله بعد ان خرج من دهاليز وزارة الحب في ١٩٨٤ . بل ولقد يبدو مصير ذلك البطل كتعبير روائي عن خضوع ارول وامثاله للثقافة التي ظل ، من اول سطر الى اخر سطر كتبه ، متشككا فيها وفي قيمها ، مناوئا لها ، متحردا ومنشقا عليها ، وفي الوقت ذاته : منسحرا بها ، بانسا من نجاة الفرد الذي دافع عنه ضدّها ، طيلة الوقت ، بكل تلك الحرارة ، وكل تلك القوة ، يأسا من بقائه . ومن وجهة نظر سولجنتسين يمكن ان تعلق على ذلك الفصام فتقول : « طبعاً ! فارول ليس الا تجسدا اخر لجزال العالم الغربي وانحلاله وندهوره النكبائي وافتقار ثقافته الى مقومات البقاء والاستمرار . » فسولجنتسين بدأ مع ارول (فكريا) من نفس المنطلق ، لكنه ، على العكس من ارول وجيد وفشر وكوستلر وامثالهم ، احتفظ بايمانه ، ونفخ في جذوته من نبع ايمان اخر لا مهرب في ظله من التفاؤل ، وكل ما نحسه في كتابات سولجنتسين من غضب ، وحنق ، ونفاد صبر ، وضيفة وهم ، ليس الا صيحة الفنى التي يطلقها المؤمن محتجا اذ يخذله كهنته . وهل كان توستوي لاحدا عندما تورد على الكنيسة وهاجمها ؟ على العكس . كان ايمانه ذاته نبعاً لا ينضب لغضبه ونقمتيه ومناواته . وكذلك سولجنتسين . فهو ليس كافرا بنظم القهر والقوة والتسلط . ليس كافرا بالعقيدة القائلة بان الناس ، عامة الناس يجب ان يساقوا ويتحكم في حياتهم نسق ما قائم على نوع من القهر . وهو في ذلك عكس ارول ومثقفى ما بين الحربين الاوربيين . وهو لذلك يستطيع ان يرتد الى ما قبلهم ، ويستقر عند رؤية كيلينية بعض الشيء ، ومرتدة .

د. هـ. لورنس :

وذلك وضع ينبغي الا يغيب عن الذهن كلما استحضرت بعض كتابات سولجنتسين في اذهاننا كتابات الغرب المنشقين . خذ مثلا ديفيد هيربرت لورنس . فسولجنتسين كاره للعيش مثل هذا الاخير تماما في ظل وثن التقدم والحضارة الصناعية ، خاصة وهو من اهل بلد كالاتحاد السوفيتي يركز تركيزا خاصا على التقدم المادي والتقني . وكراهة سولجنتسين العميقة لا يعدها الا مقت لورنس للنظام الصناعي برمته . وكتابات سولجنتسين حافلة بلحظات شبه رومانسية يتغنى فيها بحياة الطبيعة الخيرة الجميلة ، ويعادي حياة المجتمع الصناعي الحضري القائلة

النفس . بل واسمع له ، بغير رومانسية ، وبغير شعر ، في رسالته الى زعماء الاتحاد السوفيتي : « انكم جميعا من كبر السن بحيث يمكن ان تتذكروا كيف كانت مدننا قديما : كانت مدننا جعلت للعيش فيها الناس ، وتعيش فيها معهم جياهم وكلاهم ، بل وناطرات ترامهم ايضا . كانت مدننا انسانية ودودة ، مريحة ، تطمئن اليها النفس . كان الهواء فيها نظيفا على الدوام ، وكان من الممكن ان يكون لكل بيت فيها تقريبا حديقة جميلة » . (٢٢)

فكانت تقرأ لورنس في « ابناء وعشاق » ، او سائر اعماله الابداعية والنظرية التي يتوجع فيها من القبح الذي اغرق العصر الصناعي انجلترا فيه . وتاماما كما دعا لورنس ، في النصف الاول من هذا القرن ، الى نبذ التهاافت على التقدم التقني والصناعي ، وحث شعبه (والعالم كله) على العودة الى حياة الطبيعة ، وضمنى لو تعود اليه انجلترا كما كانت قبل ان تبثلي بوثن التقدم وفتح متاجم الفحم ومداخن المصانع ، يطلب سولجنتسين من زعماء بلاده ، والقرن العشرين يشرف على ربهه الاخر ، ان يبثوا اللهاث وراء التقدم كما لو كان ، في ذاته ، شيئا مرغوبا فيه فوق كل شيء اخر : « ان المجتمع يجب ان يكف عن التطلع الى التقدم كما لو كان ذلك التقدم غاية للحياة . ان التقدم الذي لا ينقطع ، ولا يتوقف ، ولا يعرف حدودا ، اسطورة سفية . والنمو الاقتصادي ليس غير ضروري فحسب ، بل وضار ، ومفض الى الدمار . والشيء الذي يجب ان نسعى اليه ونضعه نصب اعيننا كهدف لنا لا يجب ان يكون اقتصادا في حالة توسع دائم ، بل اقتصادا في حالة ثبات ، يتوقف النمو فيه عند درجة الصفر . (٢٢)

غير ان سولجنتسين ، وان تحازى مع لورنس في دعواته لنسب مكتسبات التقدم ، والتحرر من الحاح الحياة المعاصرة - في ظل الثقافة الصناعية - على مزيد من التصنيع ومزيد من الميكنة ومزيد من الاوتوماتية ومزيد من التقدم التقني ، ما يلبت - كما في حالة تحازيه مع ارول - ان يختلف عن لورنس اختلافا يصل الى درجة النقيض . فلورنس دعا الى وثنية بدائية بلعب فيها الجنس دورا رئيسيا ، بينما يرى سولجنتسين الخلاص الممكن الوحيد فيما رآه نولستوي قبالا : العودة الى رحاب الدين . . في ظل نظام ديكتاتوري ما ، غير مغيب للامال ، وخير ، وغير محدد حتى الان ، رغم كل برامج الكاتب النظرية ، يقرن العدالة الاجتماعية (بحدود معينة) بالعبادة المنضبطة التي ينظمها الدين ، وتحكمها خشية الله .

واما وجه الشبه الحقيقي والاعمق بين الكاتبين فهو ان هذا وذاك يصدران عن حب عميق لوطنيتهما ، وخيبة امل فيه لا تقل عمقا وحرارة . ولقد قلنا من قبل ان مشكلة لورنس مع انجلترا كانت اشبه بمشكلة عاشق خدعته حبيبته ، او مشكلة ابن مدله خيبته امله وخذلته امه . (٢٤)

★ ★ ★

ورغم ان سولجنتسين لا ينظر الى ما تطرف اليه لورنس من شطحات شاعرية في ذلك المجال ، بل ويكاد يحصر خلافه وخيبة امله في الماركسية وحدها ، والنظام الحاكم باسمها ، فما من شك ايضا في ان اسطره ناضحة بحب لورنس المحيط خائب الامل عينه . ولقد قلنا ان الرجل مثقف من مثقفى الثلاثينيات الاوربيين جاء بعد وقته بكثير ، بفضل تلك الفجوة التي امتدت من عام ١٩١٧ ، حتى مطلع الستينيات . لندن

(٢٢) رسالة ص ٣٧ .

(٢٣) رسالة ص ٢٢ .

(٢٤) انظر دراستينا عنه بكتابتنا دراسات في الادب الاوربي

المعاصر - بغداد - ١٩٧٢ .